

تفسير ابن كثير

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود : كان ذلك الحرج كرما قد تدلت عناقيده وكذا قال شريح وقال ابن عباس : النفس الرعي وقال شريح والزهري وقتادة : النفس لا يكون إلا بالليل زاد قتادة : والهمم بالنهر وقال ابن حرير : حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قال حدثنا المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود في قوله : { وداود وسلامان إذ يحكمان في الحرج إذ نفشت فيه غنم القوم } قال : كرم قد أنبت عناقيده فأفسدته قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يانبي آن : قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيّب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها بذلك قوله : { ففهمناها سليمان } وكذا روى العوفي عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد : حدثني خليفة عن ابن عباس قال : قضى داود بالغنم لصاحب الحرج فخرج الرعاء معهم الكلاب فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه فقال : لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعاه فقال : كيف تقضي بينهم ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرج فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرج مثل حرثهم فإذا بلغ الحرج الذي كان عليه أخذه أصحاب الحرج وردوا الغنم إلى أصحابها وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا خديج عن أبي إسحاق عن مرة عن مسروق قال : الحرج الذي نفشت فيه غنم القوم إنما كان كرما نفشت فيه الغنم فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودا من عنب إلا أكلته فأتوا داود فأعطواهم رقاها فقال سليمان : لا بل تؤخذ الغنم فيعطيها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنائمهم وأهل الكرم كرمهم وهكذا قال شريح ومرة ومجاحد وقتادة وابن زيد وغير واحد .

وقال ابن حرير : حدثنا ابن أبي زياد حدثنا يزيد بن هارون أنسانا اسماعيل عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلا لي فقال شريح : نهارا أم ليلا ؟ فإن كان نهارا فقد برئ صاحب الشياه وإن كان ليلا فقد ضمن ثم قرأ { وداود وسلامان إذ يحكمان في الحرج } الآية وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن الزهري عن حرام بن محيمصة أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الحائط حفظها بالنهر وما أفسدت المواشي بالليل صامن على أهلها وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب

الأحكام وباء التوفيق .

وقوله : { ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما } قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاهم الحسن فبكى فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبي سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ورجل مال به الهوى فهو في النار ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة فقال الحسن البصري : إن فيما قصوا من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال الله تعالى : { وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرج إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين } فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال : - يعني الحسن : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثة : لا يشتروا به ثمنا قليلا ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحدا ثم تلا { يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيفضلك عن سبيل الله } وقال : { فلا تخشو الناس واخشون } وقال { ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا } قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر] فهذا الحديث يرد نصا ما توهّمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار والله أعلم .

وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار و قريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا علي بن حفص أخبرنا ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بينما امرأتان معهما ابنيان لهما إذ جاءه الذئب فأخذ أحد الابنين فتحا كمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينكم : فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه قضى به للصغرى] وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء : (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق) .

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس ذكر قصة مطولة ملخصها : أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم فاتفقوا فيما بينهم عليها فشهدوا عليها عند دواد عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلبا لها قد عودته ذلك

منها فأمر بترجمتها فلما كان عشيّة ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله فانتصب حاكماً وتزيّاً أربعة منهم بزي أولئك وأخر بزي المرأة وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً فقال سليمان فرقوا بينهم فسأل أولهم ما كان لون الكلب؟ فقال أسود فعزله واستدعى الآخر فسألته عن لونه فقال: أحمر وقال الآخر: أغبر وقيل الآخر: أبيض فأمر عند ذلك بقتلهم فحكي ذلك لداود عليه السلام فاستدعي من فوره بأولئك الأربعة فسائلهم متفرقين عن لون ذلك الكلب فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم.

وقوله: { وسخّرنا مع داود الجبال يسبحن والطير } الآية وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجابه وترد عليه الجبال تأويها ولهذا لما مر النبي صلى الله عليه وسلم على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً فوقف واستمع لقراءته وقال: [لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود] قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبّراً وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى به ومع هذا قال: [لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود].

وقوله: { وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصّنكم من بأسمكم } يعني صنعة الدروع قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح: وهو أول من سردها حلقاً كما قال تعالى: { وأللنا له الحديد * أن اعمل سايبات وقدر في السرد } أي لا توسع الحلقة فتقلّق المسمار ولا تغليظ المسمار فتقده الحلقة ولهذا قال: { لتحصّنكم من بأسمكم } يعني في القتال { فهل أنتم شاكرّون } أي نعم الله عليكم لما أللهم به عبده داود فعلمته ذلك من أجلكم وقوله: { ولسليمان الريح عاصفة } أي وسخّرنا لسليمان الريح العاصفة { تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها } يعني أرض الشام { وكنا بكل شيء عالمين } وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسرّع به وتطلقه الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل وتوضع آلاته وحشمه قال الله تعالى: { فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب } وقال تعالى: { غدوها شهر ورواحها شهر } .

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبي سنان عن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ثم يأمر الطير فتطللهم ثم يأمر الريح فتحمله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ثم يدعو بفرس من ذات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء وهو مطأطء رأسه ما يلتفت يميناً ولا شمالاً تعطّيماً الله وشكراً

لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الـ د حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه .

وقوله : { ومن الشياطين من يغوصون له } أي في الماء يستخرجون اللالدء والجواهر وغير ذلك { ويعملون عملا دون ذلك } أي غير ذلك كما قال تعالى : { والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنین في الأصفاد } قوله : { وكنا لهم حافظين } أي يحرسه الـ د أن يناله أحد من الشياطين بسوء بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجرأ أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء ولهذا قال : { وآخرين مقرنین في الأصفاد }